رينر ماريا ريلكة

أمير شعراء ألمانيا

ولد ريلكة فى براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا سنة ١٨٧٥ وهو ينتمى إلى أصل نمساوى ، ومن المعروف أن دعاة القومية الألمانية كانوا يعتبرون النمسا دائمًا جزءًا لا يتجزأ من ألمانيا ، وقد قام هتلر بضم النمسا إلى ألمانيا سنة ١٩٣٨ وبقيت جزءا من الدولة الألمانية حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥.

وبعيدًا عن القضايا السياسية ، فإن الشاعر ريلكة رغم ميلاده فى براغ ورغم امتداد أصوله إلى النمسا ، يعتبر شاعرًا ألمانيًا ، بل إنه شاعر ألمانيا

الأول فى العصر الحديث ، فقد كانت لغته هى الألمانيـة وهـى اللغـة التـى كتب بها أدبه كله ، شعره ونثره .

نشأ ريلكة فى أسرة متوسطة لا تشـكو مـن الفقـر ، ولكنـها فـى الوقـت نفسه لا تعرف الترف ، وكان طوال حياته يشعر بالأمان حيث كان يحصل على دخل محدد ثابت يأتيه من أسرته ، وقد وفر له هذا الاستقرار الوقـت لكى يتفرغ لفنه وأدبه .

تعرض فى طفولته لتجربة كان لها تأثير على حياته وتكوينه النفسـى ، فقد ولدته أمه بعد وفاة أخت له كانت هذه الأم تحبها أشد الحب فتعلقت به أمه بعـد وفـاة أختـه تعلقًـا عاطفيًـا عنيفًـا ، وألبسـته ملابـس الفتيـات وربطت له شعره برباط حريرى ، وظلت تعامله وكأنـه بديـل لأختـه التـى ماتت وهى صغيرة، وقد كان لهذه التجربة الأولى فى حياته أثرهـا النفسـى الكبير إذ دفعه إلى العزلة والانطواء والشـعور بالغربـة عـن العـالم، وجعلتـه شديد الحساسية حتى نهاية حياته.

وفى سن الخامسة بدأ " ريلكـة " يتحـرر مـن ملابـس الفتيـات ، ومـن الصورة التى فرضتها عليها أمه.

دخل ريلكة المدرسة وبدأ نبوغه يظهر ، فقد كان متفوقًا فى كل مراحله التعليمية ، التحق ريلكة بالمدرسة العسكرية ، ونجح فيها ثم تخرج ضابطًا فى الجيش الألمانى ولكنه اكتشف أنه لا يصلح للعمل العسكرى، ثـم اتجـه بعد ذلك لدراسة الأدب والفن ، وقضـى فـى هـذه الدراسـة ثـلاث سـنوات وانتهى منها عام ١٨٩٩م وكان وقتها فى الرابعة والعشرين من عمره، وبعد إنهائه دراسته قرر التفرغ للشعر الذى مـلأ كيانـه ، وكـان الشـىء الوحيـد الذى يثير اهتمامه فى العالم كلـه وحتـى نهايـة حياتـه، لم يشـغل ريلكـة

نفسه بشيء غير الشعر ، فقد أعطى له كل الوقت والجهد ، وأصبح بذلك له شأن عظيم فى هذا الاتجاه .

بدأ ريلكة يبحث عن التجارب الحقيقية فى الحياة لكى يتفتح عقله ويزيد من موهبته ومن هنا انطلق ريلكة فى رحلات إلى أوروبا يبحث ويلتقى بعظماء الأدب والفن فى عصره ، ووصل برحلاته إلى روسيا، حيث التقى بأعظم أدبائها ومنهم تولستوى صاحب رواية الحرب والسلام وغيرها من روائع الأدب.

وقد تأثر ريلكة بتولستوى وعبر عن ذلك فى مجموعة شعرية أصدرها ريلكة بعد عودته من روسيا ، وأسماها باسم " الساعات " وقد امتلأت هذه المجموعة بمشاعر الحزن ، وبؤس الإنسان والمصير الذى يلاقيه الإنسان ، وتطرق أيضًا إلى الموت وهو المصير المحتوم فى النهاية.

وفى باريس تعرف على الفنان الكبير رودان وهو النحات العالمى صاحب تمثال " المفكر " وقد أقيم له متحف فى باريس يضم أعماله، وعندما تعرف به ريلكة تعلق به وأعجب به كثيرًا حتى أنه عمل سكرتيرًا له لمدة قليلة.

وفى مرسم رودان تعرف ريلكة على إحدى تلميذات النحات الكبير رودان وكان اسمها "كلارا فستهوف" فأحبها وتزوجها وكانت كلارا تمتاز إلى جانب نبوغها الفنى بالجمال الساحر. وعمَّ الحب والتفاهم الذى جمع بينهما، إلا أن زواجهما لم يدم طويلاً ، ولعل السبب فى هذا الانفصال يرجع إلى انشغال الزوجين بفنهما ، فكان كل منهما يعيش حياة مستقلة مليئة بالأحلام، ولم يستطع أحد منهم التنازل عن حياته الفنية من أجل الآخر وانفصل المحبان بعد علاقة زوجية قصيرة.

ابتعد ريلكة عن باريس بصخبها وضجيجها والتى خرج منها بحب فاشل وزواج لم يدم طويلاً.

اتجه ريلكة برحلاته إلى الشرق ، فقام بزيارة الجزائر وتونس ثم مصر ، وفى مصر بقى ثلاثة شهور من يناير إلى مارس عام ١٩١١م ، وأحس ريلكة فى مصر بالدفء ، والشمس الساطعة ، والعراقة ، والأصالة ، والآثار الخالدة ، وكل هذا ترك فى نفسه آثارًا شديدة العمق ، وأعجب كثيرًا ببساطة الناس ، والهدوء الذى كان موجودًا بمصر فى ذلك الوقت .

عندما جاء ريلكة إلى مصر كانت مصر خاضعة للاحتلال البريطانى ولم تمض سنوات قليلة حتى اشتعلت الحرب العالمية الأولى ووقفت تركيا مع ألمانيا فى هذه الحرب.

شعر "ريلكة" بالود والمحبة فى مصر، ولأن ألمانيا من البلاد التى كانت تعارض وتتصدى للمطامع الإنجليزية ، لقى ريلكة المزيد من الحب والمودة.

عاد ريلكة بعد زياراته التى استمرت مائة يوم وقد حمل معه من هذه الزيارة تذكارًا عزيزًا وهو نسخة من القرآن الكريم والذى ظل محتفظًا به حتى يوم وفاته .

انتقل بعد ذلك ريلكة إلى سويسرا التى قضى فيها الفترة الأخيرة من حياته وكان يلاقى ترحيبًا كبيرًا من الأمراء والنبلاء الذين كانو يحبون شعره، وفى هذه الفترة من حياته تعرف على فتاة مصرية بفندق سافوى بمدينة لوزان السويسرية ، كانت فتاة جميلة وجذابة ومثقفة ، وكانت فتاة من طبقة راقية تعلمت تعليمًا أوروبيًا ، وكانت تعيش فى أوروبا فقد كانت التقاليد المصرية فى ذلك الوقت لا تعطى الحرية الكاملة للمرأة ولا تعترف بمشاركة المرأة فى الحياة العامة ، ففضلت " نعمت " الحياة فى أوروبا

لتتمتع بقسط من الحرية التى تناسب تعليمها الأوروبى، كانت " نعمت " تعيش فى سويسرا بعد انفصالها عن زوجها الأول، وكانت تعرف اللغة الألمانية جيدًا وتتحدثها بطلاقة ومنذ أول لقاء أحس ريلكة بعاطفة قوية ناحية " نعمت " وسرعان ما أحس بتفاهم متبادل وتوطدت العلاقة بينهما وأصبحا لا يفترقان أبدًا وأحس ريلكة بالحب الدافئ العميق وأحس أن هذه التجربة أعظم تجربة عاطفية مر بها على الإطلاق، وظل ريلكة ونعمت مخلصين لبعضهما البعض حتى يوم وفاة ريلكة عام ١٩٢٦ وهو فى الـ ٥١ من عمره وبعد عدة سنوات ماتت نعمت وهى منكبة على صورة ريلكة ورسائله وكتبه ، ويقول الدكتور " بديع حقى " فى كتابه " ريلكة ـ أمير شعراء ألمانيا " : " إن الشاعر قد مرض بمرض اللوكيميا وهو زيادة كرات الدم البيضاء ، ويسمى أحيانًا باسم سرطان الدم وهذا الرأى فى مرض ريلكة فى الغالب كان صحيحًا " .

ومازال اسم ريلكة حتى اليوم يزداد لمعانًا وتألقًا بين نجوم الأدب الإنسانى أما أشعاره فإنها تنتقل بالترجمة من لغة إلى أخرى حتى أصبح له مكان مرموق فى كل لغات العالم الحية.